أدبية المستوى المعجمي في القرآن الكريم

المحاضرة الرابعة: 2028/9/29

مفهوم النص [1]

العرب أسبق تاريخيًا في دراسة كثير من قضايا النص، لكن ليس بالمصطلح الحديث نفسه. فقد تناول العلماء العرب والمسلمون منذ القرون الهجرية الأولى النصوص، ولا سيما القرآن الكريم والشعر، من خلال النحو والبلاغة والتفسير وأصول الفقه والنقد الأدبي. ودرسوا قضايا مثل ترابط الكلام، والسياق، والنظم، والدلالة، والحذف، والتقديم والتأخير، وعلاقة أجزاء الكلام بعضها ببعض. ومن أبرز الأمثلة نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري.

أما الغرب فهو الأسبق في تأسيس علم النص أو لسانيات النص بوصفه حقلًا علميًا مستقلًا حديثًا، خاصة في القرن العشرين، عندما انتقلت الدراسات اللسانية من التركيز على الجملة إلى دراسة النص الكامل،

يُعد مفهوم النص من المفاهيم الأساسية في الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة، وقد اختلف الباحثون في تحديده تبعًا لاختلاف المناهج التي ينطلقون منها. فالنص لم يعد يُنظر إليه على أنه مجرد مجموعة من الجمل المتتابعة، وإنما أصبح يُدرس بوصفه بناءً لغويًا ودلاليًا متماسكًا، تتفاعل عناصره الداخلية بعضها مع بعض، ويرتبط في الوقت نفسه بالكاتب والقارئ والسياق والثقافة والنصوص الأخرى

ولذلك عندما نريد تحليل أي نص، علينا أن نسأل: كيف بُني النص؟ وكيف ترابطت أجزاؤه؟ وما دلالاته؟ وما علاقته بالنصوص الأخرى؟ وما أثر المجتمع والثقافة فيه؟ وما الدور الذي يؤديه القارئ في الكشف عن معانيه؟

هذه الأسئلة مجتمعة تقودنا إلى فهم مفهوم النص في الدراسات النقدية الحديثة.

النص والقارئ

من أهم التحولات في الدراسات النقدية الحديثة انتقال الاهتمام من الكاتب وحده إلى القارئ. فالقارئ يسهم في إنتاج الدلالة من خلال تفاعله مع النص.ولذلك يمكن أن يُقرأ النص الواحد أكثر من قراءة، وقد تكشف كل قراءة جانبًا دلاليًا جديدًا.

لكن هل يعني ذلك أن القارئ يستطيع أن يعطي النص أي معنى يريده؟. فالقراءة ليست حرية مطلقة؛ إذ ينبغي أن تستند إلى بنية النص وألفاظه وعلاقاته ودلالاته. فلا يصح أن نفرض على النص معنى لا تسمح به بنيته.ومن هنا تقوم العلاقة الصحيحة على التفاعل بين إمكانات النص وخبرة القارئ

إذن، نحن أمام ثلاثة أطراف مهمة:

الكاتب ← النص ← القارئ

لكن هذه العلاقة لا تعمل بمعزل عن الثقافة والمجتمع والسياق والنصوص الأخرى.

تستكمل الصفحة الحادية عشرة من كتاب «**التعبير القرآني**»للدكتور فاضل صالح السامري القضية المحورية التي بدأها في الصفحة السابقة؛ حيث يتناول كيفية مواجهة المشركين للسلطان الروحي والبياني للقرآن الكريم، ثم يضع الرؤية المنهجية التي بني عليها كتابه لتذوق أسرار التعبير القرآني وإعجازه:

[1])أدبية النص القرآني: 34 - 45

أدبية المستوى المعجمي في القرآن الكريم

إن كثيراً من الناس ليس لديهم الاطلاع الكافي على أحكام اللغة ومسلّماتها الدقيقة، مما يجعل من الصعب عليهم اهتداء مواطن الفن والجمال وملاحظة أسرار الأبنية بمفردهم.

1 ـ توظيف لفظتي الرياح والريح

إن القرآن له خصوصيات في استعمال الألفاظ؛ فقد اختص كثيرًا من الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح في التعبير، فمن ذلك أنه:

استعمل (الرياح) حيث وردت في القرآن الكريم في الخير والرحمة، واستعمل (الريح) في الشر والعقوبات(١). قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف]،

وقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة]، وغير ذلك وغيره.

ولم يُستعمل الريح في الخير إلا في موطن واحد أعقبها بالشر، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس]، وهي خاتمة غير حميدة.

المعنى اللغوى

الريح: **الأصل اللغوي :**أصل الياء في "ريح" هو **الواو** (لأن جمعها أرواح وتصغيرها رويحة)، وإنما قلبت ياءً لكَسْرَة ما قبلها.
والروح : جبرئيل عليه السلام .. والروح : روح الانسان والرواح : العشي; وسمي بذلك لروح الريح ، فإنها في الأغلب تهب بعد الزوال ، ويقال يوم ريح : طيب . ويوم راح : ذو ريح شديدة

أدبية النص القرآني

من المصادر التي درست الخصائص الفنية في القرآن الكريم كتاب (البرهان في في علوم القرآن)التي عرفت في العصر الحديث بمصطلح أدبية النص القرآني بمعنى أجاب على سؤال لم استخدمت لفظة الريح بمعنى الخير في الآية الثالثة ، فقال :

((كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف} فَذَكَرَ رِيحَ الرَّحْمَةِ بِلَفْظِ الْإِفْرَادِ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا :لَفْظِيٌّ وَهُوَ الْمُقَابَلَةُ فَإِنَّهُ ذَكَرَ مَا يُقَابِلُهَا رِيحَ الْعَذَابِ وَهِيَ لَا تَكُونُ إلَّا مُفْرَدَةً

الثَّانِي :مَعْنَوِيٌّ وَهُوَ أَنَّ تَمَامَ الرَّحْمَةِ هُنَاكَ إنَّمَا تَحْصُلُ بِوَحْدَةِ الرِّيحِ لَا بِاخْتِلَافِهَا فَإِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَسِيرُ إلَّا بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ فَإِنِ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهَا الرِّيَاحُ وَتَصَادَمَتْ كَانَ سَبَبُ الْهَلَاكِ وَالْغَرَقِ فَالْمَطْلُوبُ هُنَاكَ رِيحٌ وَاحِدَةٌ وَلِهَذَا أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى فَوَصَفَهَا بِالطِّيبِ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ أَنْ تَكُونَ عَاصِفَةً بَلْ هِيَ رِيحٌ يُفْرَحُ بِطِيبِهَا

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى {إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ} وَهَذَا أَوْرَدَهُ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي كِتَابِهِ عَلَى الزَّمَخْشَرِيِّ قَالَ الرِّيحُ رَحْمَةٌ وَنِعْمَةٌ وَسُكُونُهَا شِدَّةٌ عَلَى أَصْحَابِ السُّفُنِ

الدراسة الحديثة

الرجوع الى النص وفهمه والجواب على سؤال ما لم يفهمه القارئ ويحس أنه محتاج الى التوسع للدراية : لماذا وردت بصيغة الافراد وما هي صيغة الجمع وما معنى رواكد ما معنى الفلك لماذا ورد الفعل بنون النسوة ولماذا جاء عاصف بصيغة الفاعل والفلك هل هي مفرد أم جمع (فَذَكَرَ رِيحَ الرَّحْمَةِ بِلَفْظِ الْإِفْرَادِ لِوَجْهَيْنِ)

المقصود بقولهم» :**ريح العذاب لا تكون إلا مفردة** «أنها تأتي في الاستعمال القرآني غالبًا بلفظ »**ريح** «المفرد، وليس معناه أن اللغة العربية تمنع جمعها، أو أن العذاب لا يقع برياح متعددة في الواقع.

والحكمة البلاغية أن ريح العذاب تُصوَّر قوةً واحدة متسلطة، متصلة الهبوب، مقبلة من جهة واحدة، لا تعارضها ريح أخرى تخفف شدتها؛ لذلك ناسبها الإفراد، مثل:

- ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.
- ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
- ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

أما رياح الرحمة فعادةً تُجمع في القرآن؛ لأنها متنوعة الجهات والوظائف: تسوق السحاب، وتلقّحه، وتنشره، وتبشر بالمطر، ويوازن بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾.

لكن في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾

جاءت ريح الرحمة مفردة لسببين:

1. **المقابلة اللفظية :**قابل بين «ريح طيبة» و«ريح عاصف»، فناسب أن يكون اللفظان مفردين حتى تظهر المقارنة بوضوح.
2. **المعنى :**السفينة تحتاج في سيرها إلى ريح واحدة طيبة، مستقرة الاتجاه، تلائم وجهتها. ولو اختلفت عليها الرياح واضطربت جهاتها لتعطل سيرها أو اضطربت.

إذن، الإفراد هنا لا يناقض القاعدة العامة؛ بل اقتضاه سياق السفينة والمقابلة بين حالتي الأمن والخوف:

ريح طيبة هادئة ← فرح وأمان ← ريح عاصف ← خوف واضطراب.

2 - توظيف لفظتي المطر والغيث

ومن ذلك ذكر المطر، فإنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، بخلاف الغيث الذي يذكره القرآن في الخير. قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل]، وانظر الشعراء ١٧٣.

في حين قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى

المعنى اللغوي للفظة المطر

(مطر) الميم والطاء والراء أصل صحيح فيه معنيان : أحدهما الغيث النازل من السماء والآخر جنس من العدو. فالأول المطر ، ومطرنا مطرا . وقال ناس : لا يقال أمطر إلا في العذاب قال الله تعالى : أمطرت مطر السوء .وتمطر الرجل : تعرض للمطر .

المعنى اللغوي للفظة الغيث

(غيث) الغين والياء والثاء أصل صحيح ، وهو الحيا النازل من السماء . يقال : جادنا غيث ، وهذه أرض مغيثة ومغيوثة . وغثنا ، أي أصابنا الغيث ، قال ذو الرمة " :ما رأيت أفصح من أمة آل فلان ، قلت لها : كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غثنا ما شينا"

في هذا النص، **الحَيا** هو **المطر**، وسُمّي بذلك لأن الأرض تحيا به. فقول ابن فارس: «وهو الحيا النازل من السماء» يعني :**هو المطر النازل من السماء** .والمقصود هنا *الحَيا*، لا *الحياء* الذي معناه الخجل.

أما »**أصل صحيح** «فهي عبارة يستعملها ابن فارس في *مقاييس اللغة* ليقول إن حروف الجذر)**غ ي ث** (تدل على معنى لغوي ثابت، ترجع إليه الكلمات المشتقة منه. فـ**الغيث** هو المطر، و**أرض مغيوثة** أرض أصابها الغيث، و**غُثْنا** أي أصابنا المطر.

ومعنى الجملة الأخيرة: سُئلت المرأة عن المطر عندهم، فأجابت:((**غُثْنا ما شِئْنا**)) أي نزل علينا من الغيث قدرٌ وافٍ.

أدبية النص القرآني

.1المظهر اللفظي والبنية الصرفية

- **اختيار المفردة والدقة الدلالية (أمطرنا / مطراً) :**
  - يختص استعمال لفظ "المطر" والإمطار في التعبير القرآني بمواطن العقاب والانتقام والعذاب [6، 112]، بخلاف لفظ "الغيث" الذي يُذكر في مواطن الخير والإغاثة والرحمة.
- **التنكير المتبوع بالمفعول المطلق (مَطَرًا) :**
  - جاء تنكير لفظ "مَطَرًا" والمجيء به مفعولاً مطلقاً مؤكداً ليفيد التهويل والتعظيم والتعجيب؛ فهو ليس مطراً مألوفاً من الماء، بل مطرٌ عجيبٌ هائلٌ من حجارة السجيل التي أهلكتهم108] ، 113.[
- **دلالة العدول الصرفي في (الْمُنْذَرِينَ) :**
  - اختيار صيغة اسم المفعول "الْمُنْذَرِينَ" بدلاً من "الكافرين" أو "المكذبين" يبيّن استيفاء الحجة عليهم بسبق الإنذار والإبلاغ من الرسل قبل وقوع العقوبة، كما تشير الصيغة الاسمية إلى تقرر الصفة وحتمية الثبوت والاستقرار لحلول العذاب بهم بعد إنذارهم.

.2)المظهر الدلالي والتصوير الفني (كسر الاعتياد)

- **التصوير الفني بالمشاكلة والمجاز :**
  - تحويل معنى العقاب إلى مشهد بصري حسي محسوس؛ حيث استُعيرت حركة انهمار المطر لتصوير تساقط الحجارة والعذاب وتتابعها من السماء]
- **إحداث التغريب وكسر الاعتياد**
  - يقوم التعبير القرآني بإطالة زمن الإدراك لدى المتلقي عبر تقديم المألوف (المطر) في صورة غير مألوفة (عذاب ودمار)؛ فالمطر في أصل العرف سبب الحياة والإنبات، لكنه هنا يستحيل أداة إهلاك واستئصال، مما يفرمل الذهن للتأمل في العاقبة]

الذم الصريح بـ (سَاءَ) :

- افتتحت الجملة بـ "سَاءَ" وهو فعل جامد يستوعب الذم والاستقباح، لإبراز بشاعة هذا المطر وهول المصير الذي آالوا إليه

.3المظهر الصوتي والإيقاع والنظم

- **تناسق الجَرَس والفاصلة القرآنية :**
  - ينسجم الإيقاع الصوتي المتتابع بين الألفاظ مع جو التهديد والزجر؛ حيث تتآزر الفاصلة القرآنية بلفظ "الْمُنْذَرِينَ" مع جرس الإمطار، مما يضفي جلالاً ورهبةً على خاتمة الآية يرسخ معناها في النفس

.4)التكامل بين الوظيفة الجمالية ووظيفة الهداية

- الجمال التعبيري في الآية ليس زخرفة لفظية مجردة، بل وسيلة مؤنسقة لخدمة المقصد الديني وهداية المتلقي [118، 125]؛ فالصورة الهائلة تنبه الوجدان، ودقة اختيار الألفاظ توضح عدل الله في إهلاك من أُعذروا بالنذارة، لتقود هذه الأدبية المتلقي إلى الاعتبار والخشية]

المصادر

التعبير القراني فاضل السامرائي

»أدبية النص القرآني: بحث في نظرية التفسير الدكتور عمر حسن القيام

»أدبية النص القرآني: بحث في البنية والأسلوب والسرد«، إدريس منتصر.